تذوق الشعر

بقلم الناقد الانكليزي س. د. لويس

لاشك أن اول خطوة نتخذها نحو تذوق الشعر هي الوقوف على الاصول الثلاثة التي يرتكز عليها، وهي الوزن والقافية والايقاع ، لأن الشعر في الواقع يقوم عليها. إنها بمثابة الأدوات التي تربط بين سحر الشعر وايماءات المنوم المغناطيسي وتعبيراته . فالشعر بين هذه الاشياء ضرب من التنويم المغناطيسي ، اذ يجعل جزءاً منا نائماً لكي يجعل الجزء الآخر أشد تنبهاً ونشاطا . والواقع أننا إذا وضعنا إرادتنا ضد المنوم المغناطيسي فانه يصبح عاجزاً . وهذا ما يحدث بالضبط ازاء القصيدة ، فانها ستفشل حتماً في الوصول الى غرضها الرئيسي وهو التحدث مباشرة الى القلب ، اذا ما نحن قاومنا تأثيرها .

اننا ولا ريب نصدم الكثيرين من محبي الشعر ، اذا نحن اخبرناهم بانهم لا يحبون الشعر قط . وانما الذي يحبونه هو المعنى النثري الذي يستخلصونه من القصيدة او الرسالة الاجتماعية التي قد يتضمنها هذا الشعر . وان الكثيرين ليسألون الشعراء عوضاً عن ثقتهم المفقودة ، او توجيهاً ، او قيما جديدة ، او معنى من المعاني الانسانية ، ولا يهمهم قط اذا ما خرج كل هذا في شعر مهلهل النسج وربما بالطبع أنتج الشعر هذه التأثيرات وهو لا يزال شعراً ، ولكن هذه التأثيرات تأتي تباعاً.

ان التجاوب الشعري الحق هو ولا شك واحد من اصفى المسرات . ونحن لا نستطيع تعويد انفسنا على مثل هذه الاحاسيس بدراسة الاعمال النقدية بأكثر من قدرتنا على التعود على كيفية الاستمتاع بغروب الشمس من قراءتنا لدراسة عن الاشعة . وعلى الرغم من ان الكتب المتعلقة بالبحث في الشعر لا تستطيع ان تخلق فينا هذا التجاوب ، فانها تستطيع على الاقل ان تعمقه وتنميه ، بل هي تساعدنا على تعلم اصول الشعر الثلاثة. وفي الحقيقة ان القصيدة الجيدة التي تهبنا الامتاع هي كل ما نحتاج اليه من مدرس في هذا الصدد .

ان الايقاع الشعري يوجد في الوزن والقافية ، وهذا الايقاع مستمد مباشرة من الكلمات ، ولكن في كل قصيدة جيدة يوجد إيقاع اكثر تعقيداً ، وهو الناتج عن تتابع الصور في القصيدة ، صورة إثر صورة . وكل قصيدة في الواقع هي الفخ المرئي لأحاسيس الشاعر ، وهي طريقه خطوة خطوة الى قلب تجربته الخاصة . وتجاه المعنى – الصدق الشعري – لهذه التجربة . وما الوزن والقافية والايقاع باكثر من ادوات يتمكن بها الشاعر من تقصي الصدق. انها الادوات التي يسجله لنا بها . وبالنسبة لنا وله يكون نجاحها مقاساً بواسطة قاعدة رابعة هي التحقق ، فهو يتحقق اخيراً من الصدق الذي كان يعمل تجاهه ، وهذا لا يتسنى له الا في القصيدة المنتهية . فنحن نقول حينئذ « نعم هذا حقيقي ، انني اشعر من كل قلبي انه حقيقي ».

وليس المقصود بالصدق هنا الصدق العلمي وانما المقصود بالضبط هو الصدق الشعوري، الصدق الحساسي، الصدق الروحي. فمعنى القصيدة ليس هو ما يمكن ان تعنيه اذا هي ترجمت الى النثر وانما ما تعنيه لكل قارىء عندما يترجمها الى اجزاء من تجربته الروحية . ويمكننا القول بان الشعر فوق كل طرق استعمال الالفاظ للتعبير عن اشياء كان من الممكن ان تقال بطريقة اخرى ، اشياء لا توجد في صورة معنى حتى تولد او بالاحرى يعاد ولادتها في الشعر ، او كما قال مدلتون مري : « الشعراء العظام هم من ينطقون بالصدق غامضاً جداً ، لدرجة أنه لا يمكن ان يطرح جانباً عن الالفاظ التي نطق بها »

وعلى ذلك فنحن نوصي المبتدىء ، وحتى غير المبتدىء في قراءة الشعر بمطالعة القصيدة بصوت عالٍ والافضل ان يجعلها تلقى عليه ، مستسلماً للكلمات ، دون اعمال فكره لاستخلاص معانيها . وان المختارات لنقط ابتداء طيبة ، فعليك بالتجول خلال المجموعات الشعرية حتى تقف على قصيدة تستأثر بمشاعرك عند ذلك اقرأها مرة ثانية . ثم ثالثة – هل تعطيك مسرة شعرية ؟ أعني هذه المسرة النقية التي تحصل عليها من لوحة فنية أو قطعة موسيقية – شعور البهجة والاتفاق الشعوري . هل حدث ذلك ؟ حسناً اقرأ مجموعة من القصائد لنفس الشاعر . ثم لا تبدأ في الاستفسار عما اذا كان هذا الشاعر يمتلك عشرة

اطفال أو انه مات من ادمانه الخمر . فالشعر هو المقصود ، والطريقة الوحيدة التي تبدأ بها في اكتشاف الشعر هي أن تقرأه . لقد اكتشفت في نفسك مرة التجاوب الشعري الحق — والان تستطيع أن تصقل هذا التجاوب . والخطوة الاولى نحو الصقل هو التعرف على الذهنية الشعرية ، وطبيعة الشخصية الشاعرة . ولا توجد كتب او مؤلفات تخبرنا كثيراً عن هذه الطبيعة الخلاقة عند الشاعر كهذه المحتوية على خطابات الشعراء. وان كتباً كهذه ، والتي تشبه الى حد بعيد المصانع ، المكدسة بالمادة الخام للشعر ، وهي تفتح أذهاننا على المنحى الخلاق في الشعر ، اذا ما نحن قرأناها بانتباه . ومهما كان من امر تعميق الاحساس المرهف بالشعر ، وبهذا نقدر وظيفتهم ، ونشعر بهذا التعاطف الطبيعي العظيم نحو عالم الانسان والطبيعة الذي هو في الواقع الينبوع الحق للنهر الخلاق

والخطوة التالية هي الوقوف على منهاج الشعر . وهنا مرة ثانية يجب ان نتحول الى الشعراء . فعلى الرغم من ان المنهاج بالنسبة لمعظم الشعراء يمكن الوصول اليه ان لم يكن وفق قاعدة خاصة فبالمران المتجدد . فان كمية كبيرة من احسن الاعمال النقدية في الشعر قد كتبها أناس هم انفسهم اساتذة في نظم الشعر .

والآن كلمة تحذير واحدة . يوجد كثيرون من القراء ممن غرسوا في انفسهم حبا حقيقيا وفهما عميقا للشعر القديم ، يشعرون انه ينبغي لهم أيضاً تذوق الشعر الحديث ولكنهم لا يستطيعون . وانهم ليقعون في خطأ كبير حقاً اذا ما فكروا في الشعر الحديث كشيء منفصل تماما عن الجسم الرئيسي للتراث الشعري . ولا شك انهم قد خدعوا بواسطة هذه الاصوات التي ما تنفك تهمس بأن الشاعر الحديث لا يحمل اي احترام للتقاليد الشعرية الموروثة في النظم ، وهذا ليس صحيحا ، فان كل شاعر مجيد في أي فترة من الفترات هو شاعر حديث . وكل شاعر ثائر في أي زمن لا بد وأنه قد تأثر بعمق بهذه التقاليد الشعرية التي يثور عليها الآن . والشعراء الحقيقيون هم الذين عندما يحطمون قوانين الماضي يقومون بصنع قوانين جديدة للمستقبل . واذا نحن نظرنا الى شعرنا في الوقت الحاضر بأمعان كما ننظر الان الى شعر المدرسة الرومانتيكية مثلاً فنرى ان هذا الشعر كآخر مرحلة في نهر عظيم .

الهموم الصغار

أين مني عهد الهموم الصغار ؟
من معيدي لأمسي المتواري ؟
أين عهد الهوى الذي لوّع الرو
ح وأشجى ليلي وأشقى نهاري ؟
أين عهد (الاسى) لعثرة حظي
في الذي لا يذيع من اشعاري ؟
أين عهد (الضياع) في كل درس
يتأبى في ساعة استذكار ؟
أين عهد (الخيال) يشفي جراحي
للذي لم انله من اوطاري ؟
واحنيني لها ... كأن لم أكابد
أمس منها لواذعاً من نار
يا همومي الصغار .. عودي .. فاني
ضائق الذرع بالهموم الكبار
ما عثاري على ضروب القوافي
والهوى ، يوم ذاك ، مثل عثاري ..
فدروب الحياة صخرٌ وشوك
وشفير زلق وجرف هار

بغداد

خالد الشواف

واختتم كلامي بالقول بأن الشعر هو الشعر — اقرأه بصوت مرتفع — استسلم للكلمات . قال شاعر فرنسي عظيم : « القصائد مصنوعة من الكلمات ، لا من الأفكار » . فاذا ما استأثرت صورة بمخيلتك فاعكف عليها ، فربما كانت هي نقطة البداية التي يبدأ منها الجمال الروائي في التكشف لك . وهذه القصيدة بدورها سوف تتفتح لك على عالم من الاحاسيس الجديدة من التعاطف المثير ، المسرة الحية ☆

نقلها الى العربية بتصرف

عبد المنعم عواد يوسف

☆ : لم يتعد تصرف المعرب في النص حد حذف بعض الجمل التي لا تهم القاريء العربي في شيء. ومعظم فقرات المقال منقولة نقلا امينا عن النص الانجليزي .

« المعرب »